قصة قصيرة

زمن الكلاب

أبو بكر العيادي

«قتلته!»

دوت الصرخة في أرجاء القرية الهاجدة فاصطفقت أبواب وارتجفت نوافذ، وسرعان ما سرى في الجمع المتوافد من كل الجهات همس نما وتضخم، فضجت في النفوس الحيرة وارتسم على الوجوه الذهول، وانهالت الأسئلة على الرؤوس كالضربات الموجعة.

حين هبّ إليه الرجال كان ملقى في حديقة المنزل وسط بركة متخثّرة من الدم. لم يميز أحد رأسه من رجليه. كان مجرّد قطع مخذعة اختلط فيها اللحم بالعظام. دهمهم إحساس صفيق وفاجع، وشعّت بعض العيون بحزن شفيف تبين من خلفه أشياء لا تبوح بسرها قبل أوان النضج بينما انحبست في عيون أخرى غيوم توشك أن تنهمر.

«قتلته!».

كانت تمسك المدية المضرجة بدماء داكنة بيد ثابتة وسط الرجال والنساء والأطفال، وعلى وجهها الإرهاق. والوسن يطرز عينيها بالحرقة والذبول. وكانت رغم ذلك منتصبة الجذع تسير مرفوعة الرأس، لا ريث ولا عجل، وتحرك يديها ورأسها في التفاتاتها الحذرة بدقة وحسبان.

كان زين شباب القرية، وكانت أشد عذوبة من النهار الطالع على هذه القرية التي يعزف فلاحوها بفؤوسهم على أديم الأرض المرصعة بالخضرة والماء والطيور وأغنيات الصباح الصدّاحة.

حين يعود من الحقل عند احمرار الشفق وهو يحمل الفأس على كتفه ويصدح بأغنية حب جميلة، تلك الأغنية القروية التي تتردّد في الأعراس وتتغنى بالوفاء حتى الموت، يجدها في انتظاره تحت السدرة الكبيرة فيضطجع على الأعشاب الندية العطرة، يرنو إلى فروع السدرة المنتشرة وأوراقها الوفيرة، وتتركز عيناها عليه بنظرة طافحة بالأمل فتبتسم له بحنوّ، ويبتسم لها وتتشابك النظرات، فتود أن تفصح عما يضج بداخلها، ولكنها تكتفي بالصمت، فالصمت هو وحده الذي يمكن أن يعبر عما يجيش حقاً في القلوب.

كانت تهيء نفسها في كل يوم تلقاه لسيل من الحديث لا ينتهي. ترتّبه وتصطفيه وتعدّ ما يكون رداً عن أسئلة محتملة، ولكن عند اللقاء يضيع كل شيء فتجلس حذوه، وتترك يدها تنام في دفء يديه، فيسري فيها ذلك الشعور الرقيق الذي يملأ أعماقه.

حين يكلمها بصوته الرجولي الهادىء تنشغل عنه بالنظر إلى عينيه الكستنائيتين وشاربه الكثّ، وتتابع حركات شفتيه، فترتجف أصابعها وهي تمتدّ لتمسح عن جبينه حبات تراب.

قالت له يوماً: «جسدي...» وهي توشك أن تبوح بأنه معطّل عن تنفّس رغبات الحياة، ولكن الحياء منعها فأضافت: «.. مرهق».

كانت تساعد أباها العجوز في الحقل وأمها في ترتيب البيت وإعداد الأكل، ولم تنقطع عن الحقل إلا حين برزت مفاتنها كثمار الخريف الشهيّة، وبان جبينها العريض وشعرها الأسود الفاحم المشدود خلف رأسها كذيل فرس مكتنز.

قال لها: «أنا فداك يا ريم» وهو يعلم أن الأفق مسيّج

بالسراب منذ أن خطرت ببال شيخ القرية الجديد طريقة أخرى لحماية القرية.

قتل: «إن قريتنا مطمع الحساد ومبتغى الكائدين، وحمايتها من طرف الرجال غير مأمونة العاقبة، فقد يغفو الرجال وقد يتعتعهم السكر وقد يستهويهم الميسر وقد يطير الهوى بلبّهم وقد.. وقد.. فهل نربط مصائرنا بهذه الاحتمالات؟».

وانساقت القرية خلفه كالهوام الماضية إلى زرائبها. والحقيقة أنها لم تكن تملك غير ذلك في هذا الزمن الموبوء. ومع انبلاج الفجر أطلّ الشيخ على سكان القرية الذين ما زالوا يتلمسون الصحو في هذا الفضاء المصطخب بإيقاعات تشي بالغموض، فإذا كلاب ستة بين يديه. كانت من ذلك النوع الذئبي، ذات جثث ضخمة وعيون حادة وأنياب قاطعة. ولم تفق القرية إلا والشيخ ينغل في قلبها كالديدان، فتتوالى الطلبات كشلالات المياه المنهمرة لرعاية الكلاب الحارسة.

كانت كلاباً مستوردة من البلاد الأجنبية لا ترضى ـ والعهدة على الشيخ ـ إلا بالأكل الفاخر والغذاء الدسم والمكان اللائق، وكلما انهالت العطايا على الشيخ توثبت غريزته للمزيد، وصار يشترط أموالاً إضافية لعرض الكلاب بصورة منتظمة على بياطرة ـ أجانب هم أيضاً ـ لمراقبة صحتها وتقديم العلاج المناسب لها وإرسالها إلى خارج البلاد إن اقتضى الأمر.

حين التحقت به في ظهيرة يوم آخر جلسا تحت شجرة تين وارفة يطعمان ما حضر. ظل صامتاً. أما هي فقد كانت تبتسم له وعيناها تشرقان بالوجع. عندما همّت بالانصراف قال لها:

ـ لم يبق لي غير البقرة.

في طريق العودة كانت تفكر في هذه الكلاب المدلّلة. لا يكاد يمرّ يوم دون أن يفرض الشيخ على أهل القرية دفع أموال أخرى «من أجل صحّة الكلاب وأمننا» كما يقول. ولا تجد القرية مناصاً من تلبية دواعيه حفاظاً على أمنها وسلامتها.

فكرت ريم «ولكن هذا كثير، فوق طاقتنا. لقد ذهبت الكلاب بكل مدخراتنا. لم يبق لبشير ما يكفي لزواجنا». عندما تذكر الزواج تشتعل في داخلها حرائق لاهبة ويصطخب طرق عنيف وأشياء لذيذة تقربها من بشير. ولكن الكلاب تعود ثانية فتلعنها في سرها وتلعن الشيخ وتتمنّى لهما الفناء. تتوقف قليلاً تمسح بنظراتها القرية الجاثمة فوق الهضبة «أهل القرية أولى باللعنة».

تابعتها العيون المستكينة وهي ماضية دون وجه حقيقي. كانت عيناها في اتجاه الافق المصطبغ بلون الدم وقد بانت عن بعد هامات الأشجار كهياكل ألصقت على ورق صقيل تتماوج على صفحته الألوان والظلال.

كانت القرية بين اليقظة والغيبوبة، تنوء تحت لحظة نادرة من الإحساس بالألم والفرح المكتوم، بالفجيعة واللذة المكبوتة، وتلملم المزق المتناثرة كي لا تضيع في غبشة ليل جديد وفجر لا يجيء.

كان زين شباب القرية.

عاودتها ذاكرتها فغامت عيناها خلف ضباب الدمع وبدأ الإرهاق يهبط على كتفيها ثقيلاً كالليل، وتوغل في نفسها المرارة.

في تلك الليلة الضاربة في السواد والآمال المتصدعة اهتزت القرية ومزق الصمتَ هدير أصوات غريبة اختلط فيها العواء بالثغاء والحوار، وعلا صوت صدى مرعب يملأ مسام الطبيعة، فانفجرت صرخات الأطفال وولولة النسوة، وتعالى صياح الرجال.

كانت لحظات كالدهر. نزلت على القرية كالريح العاتية، كخرافة طالعة من عمق التاريخ، ثم عاد الصمت وقد تضخم في الآذان المتفتحة لكل همس مريب، حتى لدبيب النمل أو هسهسة الخشاش. وباتت القرية متيقظة ترقب خطراً لا تعرف مأتاه، وتتوجس أن يدهمها الموت في أية لحظة. ليلتها، كان الخوف قد قذف بالنوم من الرؤوس.

وفي فجر يوم خريفي أطل الرجال وقد سوّرت عيونهم هالات سود صغيرة ومضوا إلى زرائب الأنعام ومخازن المونة تلفحهم نسمة صباحية باردة فإذا بالمأساة ترتطم بوجوههم مدوية مصدّعة فيكون وقعها أشد فتكاً وهولاً من هذا الزحف المدمر، هذا العدو المجهول، هذا الخطر الداهم الذي أتى فجأة على كل ما أسسه عرق السنين. امتدت الفاجعة عميقاً إلى تلك العيون السادرة الغارقة في التيه والذهول.

حين أدركته كان جاثياً يلثم وجه بقرته التي فاضت أحشاؤها ومُزّقت قوائمها وبانت ضلوعها وتجمدت نظرتها تحت غشاء رمادي رقيق. التحمت به تمسك بيديها كتفيه العريضتين. التفت إليها في حركة بطيئة فامتدت أصابعها لتمسح دمعة ترقرقت في إحدى عينيه.

دنا إليها ببصر زائغ وفاضت عيناه بأشياء لم يقلها. ثم نهض ومضى إلى ساحة القرية وسط الأجساد المتدافعة وهدير الأصوات والولولة والصراخ.

حين أدرك الجمع كان الشيخ يجتاز مختالاً عتبة بيته ترافقه كلابه الستة. ربت على أحدها ومرّ بيده على شعر كلب آخر. نظر إليهم نظرة من فوجيء بهذا الحشد الملتئم أمام بيته الواقف في قلب القرية بطوابقه الثلاثة يزدري بالبيوت الوطيئة.

قال: «كأني سمعت جلبة وصراخاً. ما الأمر؟».

فسرت همهمة سرعان ما انطفأت وساد الصمت من جديد. كانت العيون تدور في محاجرها والشفاه تكظم كلاماً يروم الانفلات. حدثه أحدهم عن الهجوم الليلي المباغت،

وعن الزرائب التي لم يبق فيها غير جثث ممزقة وأشلاء لحم.

فقال:

ـ الحمد لله أن الكلاب كلابنا، لم تصب بسوء.

رد عليه رجل ثان:

ـ ولكن أرزاقنا قطعت!

فأجاب:

ـ المهم أنكم بخير.

واستدار عائداً يداعب أحد كلابه.

عندئذ ندت صرخة:

ـ لمن تربّي الكلاب إذن يا ابن الكلب؟

كان بشير واقفاً يتحدى الشيخ وسط الجمع الذي بدأ يتململ ويبدي نوعاً من التعاطف المكتوم مع هذا الشاب الأمر الذي تشع عيناه ببريق حادّ وإصرار قوي.

حدجه الشيخ بلحاظ كاوية ولم يقل شيئاً.

وفي الغد وُجد في حديقة منزله ممزقاً تمزيقاً كأنما وطئته أظلاف قوية أو نهشته أنياب مسعورة.

«قتلته!».

كانت تصرّ أسنانها في حنق كأنها تعض حبة لوز عنيدة.

حين وقعت عيناها على ذلك المشهد المريع في صبيحة ذلك اليوم الغائم جفلت كحمامة يفجؤها نسر جارح وارتدت تلطم وجهها وتندب خديها:

ـ لا! لا! هذا ليس بشيراً. إنه شخص آخر. شخص آخر, بشير لم يمت. بشير لا يموت. سنتزوج. لقد وعدني بذلك.

وفجأة شع في عينيها وميض غريب واستدارت متجهة إلى البيت. بحثت عن أي شيء حاد. عثرت على المدية التي يذبح بها أبوها الدجاج والأرانب. وتسللت لتباغت باليقين والاصرار دون تردد أو خذلان من اقتلع البسمة من شفتيها وحرمها من ضوء الشمس ودفق الحياة.

كان مستلقياً على كرسي طويل ينعم ببعض أشعة فاترة بعد أن أطعم الكلاب وقادها إلى مربضها حين امتدت يدها بالمدية إلى صدره مراراً لعل زمناً آخر ينمو ويعشوشب.

ومضت تاركة القرية خلفها بين غيبوبة أليمة وصحوة مترددة حتى غابت عن الأنظار.

تونس

صدر حديثاً

الفتاة الايطالية

تأليف ايريس مردوخ

ترجمة فؤاد كامل

هرب ادموند من عائلته إلى حياة متوحّدة. وحين عاد للمشاركة في جنازة أمّه، وجد نفسه داخل مشاكل قديمة ومريعة، كما وجد مشاكل جديدة أخرى.

واكتشف من جديد خادمة العائلة الأزليّة، الفتاة الايطالية الدائمة التغيُّر والتي كانت أبداً الأمّ الأخرى. وهذه العودة الخاصّة إلى الأمّ تخفي عدة مفاجآت لادموند.

وقد علقت جريدة الدايلي تلغراف على الرواية بأن مؤلفتها ايريس مردوخ هي أفضل روائية انكليزية معاصرة.

منشورات دار الآداب